سلسلة الثقافة الإسلامية (٩٤)

حديث الولاء

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ٩٤ -

❊ ❊ ❊

اسم الكتاب: .... حديث الولاء
المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الاولى: .... ١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١٠م
الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة
المطبعة:........ مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف



عن رسول الله ﷺ قال: (قال الله ما تحبّب إلـيّ عبـدي بشيء أحبُّ إليَّ ممّا افترضتهُ عليه، وإنّـه ليتحبّـب إلـيّ بالنافلة حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمَعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق بـه، ويـدَه التي يـبطش بهـا، ورجلَـه التـي يمشـي بهـا. إذا دعـاني أجبتُه، وإذا سألني أعطيته، وما تـرددت فـي شـيء أنـا فاعله كترددي فـي مـوت المـؤمن يكـره المـوت وأنـا أكره مساءته).

بحار الأنوار ٧٠: ٢٢ عن المحاسن: ٢٩١.

حبّ الله من عناصر الولاء لله تعالى، إذا أحب العبدُ ربَّه أحبهُ ربُّه. والآن نريد أن نعرف متى يحب اللّهُ عبدَه. وهذا هو السؤال الثاني ـ من حيثُ الأهميةُ ـ في هذا الفصل.

السؤال الأول: كيف نحبُّ اللّهَ؟

والسؤال الثاني: متى يحبّنا اللّهُ؟

وسوف نتحدّث ـ إن شاء الله ـ عن الإجابة عن هذا السؤال الأخير.

وأفضل ما نستطيع أن ننطلق منه للإجابة على هذا السؤال هو حديث الولاية. وهو حديث جليل من الأحاديث القدسية الشريفة وقد صحّت روايته عن طريق الفريقين.

وسوف نذكره عن بعض طرقه، بألفاظه المختلفة، دون أن نتعرّض للبحث عن طرقه وأسانيده، اتّكالاً على اشتهاره وتسالم المحدِّثين عليه.

عن رسول الله ﷺ قال: (قال الله ما تحبّب إليّ عبدي بشيء أحبُّ إليَّ ممّا افترضتهُ عليه، وإنّه ليتحبّب إليّ بالنافلة حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمَعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها. إذا دعاني أجبتُه، وإذا سألني أعطيته،

وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في موت المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته)[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرئيل عليه السلام قال: قال الله تبارك وتعالى: (من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة، وما ترددت في شيء أنا فاعله ما ترددت في قبض نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته. ولابدّ له منه وما يتقرّب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه.

ولا يزال عبدي يبتهل إليّ حتى أحبّه، ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً وموئلا، إن دعاني أجبته، وان سألني أعطيته، وان من عبادي المؤمنين لَمَنْ يريد الباب من العبادة فاكفه عنه لئلا يدخله العجب، ويفسده، وان من عبادي المؤمنين لَمَنْ لا يصلح إيمانه إلاّ بالفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وان من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلاّ بالغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وان من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلاّ بالسقم، ولو صححت جسمه لأفسده

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٢٢ عن المحاسن: ٢٩١.

ذلـك، وان مـن عبـادي المـؤمنين لمـن لا يصـلح إيمانـه إلاّ بالصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك... إنـي أُدبِّـر عبـادي بعلمـي بقلوبهم فأني عليم خبير)[١].

وقد أوردنا الحديث بطوله لما فيـه مـن معـاني جليلـة فـي معرفة الله وحبِّ الله لعباده، وتدبير حالهم.

وقد أخرج البخاري في صحيحه[٢] هذه الرواية عـن أبـي هريرة بلفظ قريب ممّا نقلناه، كما أخرجهـا أحمـد بـن حنبـل في المسند[٣] عن عائشة. والألفاظ متقاربة.

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ١٦ – ١٧ نقلاً عـن علـل الشـرائع ١: ٢ ، ومسـتدرك الوسـائل ٢/ ٤١ و١١/ ٢٥٦ وأصـول الكـافي ٢/ ٤٩١، وقـد روى هـذا المضمون بألفاظ مختلفة الحر العـاملي فـي الجـواهر السـنية ص:١٢٠ – ١٢١ و ١٥٤ منشورات مكتبة المفيد.

(٢) صحيح البخاري ٤: ١٠٧ ط. بولاق.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٦: ٢٥٦. وطرق هذا الحديث الشريف كثيـرة. رواها الطبراني في المعجم الاوسط بـاب الهـاء ٢٠٠/٢٠ دار الحـرمين، القاهرة – ١٤١٥هـ. وفي نفس المصـدر ونفـس الطبعـة بـاب مـن اسـمه هارون ١٢٩/٩ والمعجـم الكبيـر للطبرانـي سـنة ١٤٠٤ – ١٩٨٣ ، ٢٢١/٨ والجامع الكبير للسيوطي حـرف الهمـزة (برنـامج المكتبـة الشـاملة) ١ /

التحليل والتفسير

هذا الحديث الشريف يستعرض ثلاث معادلات مهمة في علاقة الإنسان بالله تعالى تستوجب منّا أن نقف عند كلِّ واحدة منها بعضَ الوقت.

وهذه المعادلات الثلاث هي:

١ـ إن إقامة الفرائض وأداء النوافل تقرِّب الإنسان إلى الله. وهذه المعادلة تقرِّر علاقة الفرائض والنوافل بالقرب من الله (ما يتقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ ممّا افترضته عليه).

٢ـ وإذا تقرّب العبد إلى الله أحبّه الله؛ وهذه المعادلة تقرر علاقة القرب من الله بحبِّ الله لعبده (وانه ليتقرّب إليّ

٨٩٧٨، وفي نفس المصدر ونفس الترقيم ١ / ٢٦٢٦٢ وشرح السنة للبغوي بالترقيم المتقدم، وجامع الاحاديث باب إنّ المشددة مع الهمزة ٨/ ٢٨٨ نفس الترقيم للسيوطي، وجامع العلوم والحكم لأبي الفرج عبد الرحمن الحنبلي/ دار المعرفة – بيروت ١/ ٢٥٩ – ٢٦٠.

وأخرجه الشيخ محمد المدني في كتاب الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية ص:٣٦ ط. دائرة المعارف العثمانية – الهند – وقال أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء، والحكيم الترمذي وابن مردويه وأبو نعيم البيهقي في الأسماء، وابن عساكر عن أنس.

بالنوافل حتّى أحبّه).

٣ـ وإذا أحبّ الله عبداً كان سمعه وبصره، وهـذه المعادلـة تقرّر علاقة حبّ الله لعبده بما يهبه الله تعالى من نور في سمعه وبصره وفؤاده وقـوّة فـي يـده وبطشـه. والآن نقـف عنـد كـل واحدة من هذه المعادلات بعض الوقت للتأمّل:

المعادلة الأولى

وأوّل مـا يسـتوقفنا فـي هـذه المعـادلات الـثلاث العجيبـة علاقة الفرائض والنوافـل بـالقرب مـن الله تعـالى. ونلقـي أوّلاً نظرة على مفردات هذه المعادلة:

المقصود من الفرائض هنا كـل مـا أوجبـه الله تعـالى علـى عباده من واجبات.

وتحـريم المعاصـي أيضـاً يـدخل فـي الفـرائض، فـإن الله تعالى فرض على عباده ترك المعاصي والكفّ عنها[1].

فالفرائض تشمل إذن كافة الأحكام الإلزامية في الشـريعة

---

(١) وبهذا النحو أيضاً يفسر الشوكاني الفرائض في كتابـه القطـر الـولي من حديث الولي: راجع ولاية الله ص:٣٥٣.

من واجبات ومحرّمات، وهي مجموعة الحدود الإلهيـة التـي شرّعها الله تعالى لعباده.

والنوافل هي ما زاد علـى الفـرائض مـن المسـتحبات التـي يحبها الله تعالى ولـم يفرضـها علـى العبـاد، وهـي مشـتقة مـن النفل بمعنى الزيادة؛ أي الزيادة على الفرض والواجب.

القرب إلى اللّه

والقرب من الله تعالى ليس من مقولة القـرب فـي المكـان أو الزمان بالتأكيد، فلابدّ أن يكون المقصود مـن قـرب العبـد من الله تعالى أحد معنيين اثنين: المعنى الأوّل قرب العبـد مـن الله تعالى وشبهه به عزّ شأنه في صفات الكمال والجمال.

وليس هناك من تناسب بين الممكن والواجب والمخلوق والخـالق حتـى يقـاس أحـدهما بـالآخر، ولكـن مهمـا كـان المخلوق يتّصف بصفات الخالق يكـون أقـرب إليـه... ومهمـا يتجرّد المخلوق ويتنزّه من نقاط الضـعف يكـون أقـرب إلـى كمال الله تعالى وجماله.

كما يصح العكـس، فكلّمـا تجمعـت لـدى الإنسـان نقـاط الضعف ابتعد بنسـبتها عـن الله، وحركـة الإنسـان إلـى الله فـي

تجاوز نقاط الضعف هذه.

ولنأت بمَثَل على ذلك.

يقول تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾.

الشُحّ: نقطة سلبية في نفس الإنسان، تبعد صاحبه عن الله، وبقدر ما يستحكم الشُّح في نفس الإنسان يبتعد عن الله.

فإذا تجاوزها تقرّب إلى الله بنفس النسبة، فإن الله كريم، جواد، وليس في ساحته تعالى شحّ وبخل، فمن كان في نفسه شح وبخل كان بعيداً عن الله بقدر ما في نفسه من الشح، ومن استطاع أن يقي نفسه من الشح قرب من الله بنسبته.

وعلى هذا المنوال؛ كل خُلّة حميدة في الإنسان من صفات الجمال والجلال الإلهية تقرّب الإنسان إلى الله تعالى درجة.

وكل صفة ذميمة في الإنسان تبعده عن الله... وهذا هو المعنى الأوّل للقرب.

والمعنى الآخر للقرب هو الارتباط والاتصال والقرب المعنوي الحاصل بالمعرفة والتعلّق والذكر والحب والطاعة والرضا بأمر الله.

فإن هذه الأُمور وما شابهها تحقق للإنسان ارتباطاً وثيقاً

بالله وقرباً إليه تعالى، بخلاف ما يضادها. فإن المعرفة تقرِّب صاحبها إلى الله والجهل بالله يبعده عنه سبحانه، والذكر يقرِّب صاحبه إلى الله والغفلة عن الله تبعده عنه تعالى، والإقبال على الله يقرب صاحبه إليه والإعراض والصدود يبعده عنه تعالى.

والطاعة تقرّبه إلى الله، والعصيان يبعده عن الله.

والرضا بأمر الله يقرِّبه إلى الله والسخط على الله يبعِّد صاحبه عن الله.

والتسليم يقرِّب صاحبه إلى الله، والتمرّد يبعده عن الله.

إن هذه القيم وأضدادها وصل وفصل. كل قيمة من القيم التي أعددناها تصل الإنسان بالله وتقرّبه إلى الله. وأضدادها تفصل الإنسان عن الله وتبعده عنه تعالى. وهذا المعنى معنىً شائع في القرب والبعد.

والقرب والبعد بهذا المعنى غير منفصل عن المعنى السابق الذي شرحناه. فالقرب بمعنى التعلّق والحب والاندكاك والمعرفة يأتي نتيجة السنخية في الصفات. فكلّما اتّصف الإنسان أكثر بصفات الله وتخلَّقَ بأخلاق الله زادت السنخية في الصفات والأخلاق بينه وبين الله تعالى. وحاشاه وتعالى

من أن يشبهه أو يسانخه شيء من خلقه وعباده[1] وذلك بموجب قانون التجاذب المعروف، حيث يجذب الكامل من كل شيء الناقص من سنخه، وكلّما تكون المسانخة أقوى يكون الجذب أقوى.

وكلّما كانت صفاتُ الإنسانِ وأخلاقه، أبعد عن صفات الله تعالى وأخلاقه كانت العلاقةُ أضعفَ والمعرفة أقلَّ.

فإذا اتصف الإنسان بأخلاق وصفات ضد صفات الله كالبخل والظلم والعدوان والجهل. أدّى ذلك إلى صدود في الإنسان عن الله تعالى، وانقطاع الإنسان عن الله وجهله بالله تعالى. وذلك بموجب قانون التنافر بين الأطراف غير المتسانخة.

كما يصحّ العكس أيضاً، فكلّما ازداد إعراض الإنسان عن الله وجهله بالله وغفلته عن الله وتمرّده وعصيانه لله تعالى ازداد

---

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الثناء على الله (الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين) النهج: الخطبة/ ٢١٣. ما عدى الصفات التي يختص بها الله تعالى دون خلقه كالكبرياء، فإنه رداؤه وحده والتوحيد والقدم والبقاء وأمثال ذلك مما يختص الله به تعالى دون سائر خلقه.

بعداً عن الله في صفات الجمال والكمال.

وكلا هذين القانونين لهما تطبيقاتٌ واسعة في عالم علاقات الإنسان وارتباطاته، وحبِّه وبغضه، وانجذابه وصدوده ونفوره، ووصله وفصله، وبعده وقربه.

وهذا باب واسع من المعرفة لا يسعنا الآن أن ندخله بأكثرَ من هذا الحدِّ.

العلاقة بين القرب والفرائض

وإذا عرفنا مفردات هذه المعادلة نستطيع أن ننتقل إلى تفسير هذه المعادلة والعلاقة بين الفرائض والنوافل والقرب من الله تعالى.

فنتساءل ما هي العلاقة بين الفرائض والنوافل والقرب من الله؟

فقد ورد في النصوص الإسلامية أن إقامة الفرائض من أفضل الأعمال، وطاعة الله تعالى في الحلال والحرام أرضى شيء إلى الله وأحبّه إليه.

وورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أن رسول الله خطب المسلمين قبيل شهر رمضان وذكر لهم ما جعل الله

للمؤمنين من فضل في هذا الشهر... والحديث طويل ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: فقمت فقلت يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر فقال: يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عزّوجلّ[(١)].

وعن الديلمي: روى أن موسى عليه السلام قال: (يا ربِّ اخبرني عن آية رضاك عن عبدك، فأوحى الله تعالى إليه: إذا رأيتني اهيئُ عبدي لطاعتي واصرفه عن معصيتي فذلك آية رضاي)[(٢)].

وقد وردت نصوص كثيرة في المصادر الإسلامية تؤكّد جميعها علاقة الطاعة في الفرائض بالقرب من الله تعالى.

وهذه العلاقة تتم من خلال مرقاتين (التقوى) و(الذكر).

المرقاة الأولى للقرب إلى الله

إن من أهم عوامل تكامل الإنسان ونموِّه وقربه إلى الله

---

(١) عيون الأخبار ١: ٢٩٥ – ٢٩٧.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٢٦.

(مخالفة الهوى) والسيطرة عليها وإخضاع الهوى لأمر الله تعالى ونهيه.

وهذه العملية تتطلّب من صاحبها كثيراً من الجهد النفسي والمعاناة الشاقّة العسيرة.

وفي هذه المعاناة تكامل الإنسان وعروجه إلى الله، وكلّما كانت معاناة الإنسان في ذلك أكثر كانت حركته إلى الله أسرع وأقوى. فالسيطرة على الغريزة الجنسية لدى الشباب تتطلّب معاناةً وجهداً نفسياً أكثر ممّا تتطلبه السيطرة على الشهوة في غير هذا العمر، وحركة الإنسان إلى الله في هذا الجهد والمعاناة تتناسب دائماً تناسباً طردياً مع الجهد الذي يبذله صاحبه.

وقد روى عن ابن عبّاس رحمه الله انّه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أي الأعمال أفضل؟ فقال: (أحمزها) أي: أقواها وأشدّها[١].

والقرآن الكريم يعبِّر عن معاناة الإنسان في حركته إلى الله، للقائه تعالى بـ (الكدح)، يقول تعالى:

---

(١) النهاية لابن الأثير ١: ٤٤٠. ومستدرك سفينة البحار ٤٢٦/١، وبحار الانوار ٦٧/ ١٩١ و٢٢٧ و٢٩٨ و٧٩/ ٢٢٩ و٣٣٢/٨٢.

﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ**﴾(١).

والكدح هنا، والله أعلم، هو معاناة الإنسان الداخلية في مخالفة الهوى، وضبط النفس، وتقنين الغرائز، في حركته إلى الله.

وهذا الضبط والتحديد والسيطرة على الهوى في طريق الالتزام بحدود الله تعالى هو (التقوى)، وهو المرقاة الأُولى للقرب من الله تعالى.

والتقوى أن يقدِّم الإنسان إرادة الله تعالى على إرادته، وحكمه تعالى على رغباته وأهوائه، ويحكِّم حدود الله وأمره ونهيه على أهوائه ورغباته.

ولما كان هذا التقديم والتحكيم لإرادة الله على إرادة العبد، ابتغاء لمرضاة الله وطاعته فهو يقرب الإنسان بالضرورة إلى الله بالمعنى الثاني الذي ذكرناه للقرب.

وهو يتطلّب من الإنسان جهداً كبيراً، وهذا الجهد الموجّه

---

(١) الانشقاق: ٦.

يقرِّب الإنسان إلى الله تعالى، ويزيد من ارتباطه وتعلقه بالله، وكلّما كان هذا الجهد والمعاناة أعظم كانت صلة الإنسان بالله تعالى وقربه منه عزَّ شأنه وعلاقته به تعالى أعظم وأكثر، بنسبة طردية.

وهذه هي المرقاة الأُولى للقرب من الله من خلال الفرائض بناءً على التفسير الشامل الذي ذكرناه للفرائض، والذي يتضمّن الحدود الإلهية والعبادات معاً.

المرقاة الثانية للقرب إلى الله

والمرقاة الثانية للقرب إلى الله (الذكر). والعبادات تتضمّن عامل الذكر، وتنقل الإنسان من محور الذات (الأنا) إلى محور الله تعالى حتى تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله ربِّ العالمين.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

وهذه النقلة الكبرى هي أهم وأسمى الغايات وأعلى

---

(١) الأنعام: ١٦٢.

مراحل حركة الإنسان إلى الله تعالى... وهي المعنى الثاني للقرب وهو (التعلّق بالله والارتباط والاتصال بالله واستحضار صفاته تعالى).

فتساهم العبادات في تعميق هذه الصلة بين العبد وربِّه، وتنقل العبد من محور الذات إلى محور الله، وتمنحه الخشوع وحضور القلب، والإقبال على الله، والانقطاع عمّا سواه، وكل ذلك أدوات تربوية قوية جدّاً ومؤثّرة في تعميق صلة الإنسان بالله، وقد ورد في فضل الصلاة عن رسول الله ﷺ: (الصلاة قربان كل تقي)[1]. أي المرقاة والأداة التي يعرج من خلالها الإنسان إلى الله.

كما أن العبادات تتقوّم بنيّة القربة، ومن دونها لا تصحّ عبادة أصلاً... ونيّة القربة هي ابتغاء وجه الله تعالى في العبادة وطلب مرضاته تعالى فيها. والاستمرار في النيّة وابتغاء وجه الله، في كل عبادة، وفي كل عمل صالح، وفي كل فريضة واجبة أو عمل مستحب. واستحضار النيّة في القلب بصورة مستمرة يعمِّق حالة الطلب في نفس الإنسان ويشُدُّ الإنسان

---

(١) بحار الأنوار ١٠: ٩٩.

بالله تعالى بأقوى الوشائج والصِلات، لأنها تتضمن بالضـرورة طلـب العبـد لمرضـاة الله، وهـو يقـرب العبـد إليـه بالضـرورة تكويناً، كما أن خلافه وهـو عصـيان العبـد وإعراضـه وغفلتـه عن الله يبعد الإنسان عن الله.

ولسنا هنا نريـد أن نـدخل هـذا البحـث فهـو بحـث واسـع وعميق من أبواب الثقافـة الإسـلامية ولا يمكـن اسـتيعابه فـي هذه العجالة.

المعادلة الثانية

وننتقل الآن إلى المعادلة الثانية، وهي العلاقة بين (القرب) و(الحبِّ) فكلّما تقـرّب العبـد إلـى الله أحبّـه الله، ومهمـا كـان حظ العبد من قرب الله تعالى أكثر كان حظّه مـن حبِّـه تعـالى أكثر. ولا نتوقف كثيراً عند توضيح هذه المعادلة.

فإن العبد يرقى إلى قرب الله تعالى من خلال ثلاث مراق: (التقوى) و (الذكر) و (الإحسان) والله تعالى يحـبّ أن يرقـى إليه عبده من خلال هذه المراقي جميعاً.

عن المرقاة الأُولى يقول تعالى:

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(١).

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢).

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣).

﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(٤).

وفي مقابل ذلك فإن الله لا يحب المعتدين والظالمين والفاسقين الذين يتجاوزن حدود الله تعالى ولا يتقون الله. يقول تعالى:

﴿وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٥).

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾(٦).

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾(٧).

---

(١) آل عمران: ٧٦، والتوبة: ٤ و٧.

(٢) البقرة: ٢٢٢.

(٣) المائدة: ٤٢، والحجرات: ٩، والممتحنة: ٨.

(٤) التوبة: ١٠٨.

(٥) البقرة: ١٩٠.

(٦) البقرة: ٢٠٥.

(٧) البقرة: ٢٧٦.

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[١].

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[٢].

﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ﴾[٣].

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤].

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٥].

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾[٦].

وعن المرقاة الثانية يقول تعالى:

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[٧].

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٨].

---

(١) آل عمران: ٥٧ و ١٤٠.

(٢) النساء: ١٠٧.

(٣) النساء:١٤٨.

(٤) المائدة: ٦٤.

(٥) المائدة: ٨٧ .

(٦) الأنفال: ٥٨.

(٧) البقرة: ٢٢٢.

(٨) آل عمران: ١٥٩.

وعـن رسـول الله ﷺ: (ان أحَـبَّكم إلـى الله جـلَّ ثنـاؤه أكثرُكم ذكراً له، وأكرمكم عند الله أتقاكم)[١].

المرقاة الثالثة

وهناك طائفة ثالثة يحبّهم الله تعالى، وهم المحسنون، والله تعالى يحب الإحسان، والإحسان مرقاة إلى قرب الله تعالى بالتأكيد، والله تعالى يحبّ الإحسان كالعفو والجود والرفق والإكرام والإيثار (مما لا يشمله التقوى).

يقول تعالى: ﴿**وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٢].

﴿**وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٣].

﴿**وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾[٤].

﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[٥].

---

(١) بحار الأنوار ٧٧: ٨٦ و٧٤/ ٨٦.

(٢) البقرة: ١٩٥، والمائدة: ١٣.

(٣) آل عمران: ١٣٤ و١٤٨، والمائدة: ٩٣.

(٤) آل عمران: ١٤٦.

(٥) المائدة: ٥٤.

ومهما يكن من أمر، فهذا هو تفسير المعادلة الثانية الواردة في هذا الحديث الشريف، وننتقل الآن إلى المعادلة الثالثة .

المعادلة الثالثة

وإذا أحب الله عبداً رزقه بصيرةً وسداداً وقوّة ونوراً، وكان عينَه التي بها يبصر، وسمعَه الذي به يسمع، ويدَه التي بها يبطش، وفؤادَه الذي به يعقل.

وقد اختلف العلماء في تفسير هذه القوة في حديث الولاية، وذكر لها ابن حجر العسقلاني في فتح الباري([١]) ستّة وجوه.

ويظهر لي أن المقصود من هذه الفقرة أوضح من أن يحوج الإنسان مثل هذه التوجيهات والتأويلات.

فالحديث الشريف يشير إلى أن العبد الذي يحبّه الله تعالى يرزقه نوراً في قلبه، وشرحاً لصدره، وسداداً في أفعاله وتصرّفاته، ويقذف الحكمة في قلبه، وينطق لسانه بالصواب والحكمة، ويرزقه القوة والسطوة على أعدائه، حتى إذا أبصر

---

(١) فتح الباري ١١: ٢٩٥.

فكانّه أبصر بعين الله، وإذا سمع فكأنه يسمع بسمع الله، وإذا بطش على أعدائه فكأنّما يبطش بيد الله، وكان الله له عيناً وسمعاً وبصراً... .

وقد ورد مثل هذا المعنى كثيراً في القرآن الكريم والسنّة الشريفة.

يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(١).

ويقول تعالى:

﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾(٢).

فالله تعالى إذا أحبَّ عبداً رزقه نوراً يمشي به في الناس، فإذا أبصر فبنور الله يبصر، وإذا مشى في الناس، وتعامل

---

(١) الحديد: ٢٨.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

معهم، ودخل فيما يدخل فيه الناس فبتسديد من الله وتبصير منه، وإذا قام وقعد فبحول من الله وقوّة منه (بحول الله وقوّته أقوم وأقعد).

وقد ورد هذا المضمون في الكثير من النصوص الإسلامية.

عن أمير المؤمنينعليه السلام :(إذا أراد الله بعبد خيراً منحه عقلاً قويماً وعملاً مستقيماً)[١].

(إذا أحبَّ الله عبداً رزقه قلباً سليماً وخُلقاً قويماً).

(إذا أراد الله بعبد خيراً أعف بطنه وفرجه).

(إذا أراد الله سبحانه صلاح عبد ألهمه قلّة الكلام وقلّة الطعام وقلّة المنام).

فإذا أحب الله عبداً رزقه عقلاً، وقلباً، وخُلقاً، ويعفّ بطنه وفرجه، ويسدّد كلامه ومنطقه، ويفتح الله على قلوبهم أبواباً من المعرفة، والفكر، والذوق، فينظرون بنور الله، ويتذوّقون طعم الإيمان والمعرفة.

وهذه المعرفة والعلم والنور الذي يجده المحبّون لله في

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ص: ١٣٦.

قلوبهم غير المعرفة والعلم الذي يكتسبه الآخرون من مصادر المعرفة والعلم... إنّما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد[(١)].

ويصف الله تعالى عبده الصالح الذي التقى به موسى عليه السلام على ساحل البحر ليعلِّمه ممّا علَّمه الله من الرشد فيقول تعالى عنه:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[(٢)].

هذا العلم الذي كان يختزنه العبد الصالح الذي التقاه موسى عليه السلام كان ممّا علّمه الله، ومن لدنه تعالى.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من أخلص لله أربعين يوماً فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[(٣)].

أرأيت كيف تتفجّر عيون الماء من أعماق الأرض

---

(١) هذا الحديث ورد في معراج السعادة للنراقي ص: ١٣. ومصباح الشريعة ص٥، والمسترشد لمحمد بن جرير ص٤، وبحار الانوار ٦٧/ ١٤٠، ومرآة العقول ٢/ ٨٥، و٧/ ٢٢٩.

(٢) الكهف: ٦٥.

(٣) بحار الأنوار ج ٧٠: ٢٤٩ عن عدّة الداعي ص:١٢٣ ط. الهند.

فيجري الماء زلالاً عذباً، خالصاً على وجه الأرض، كذلك يفجّر الله ينابيع الحكمة في قلوب المؤمنين الذين أخلصوا لله فتجري على ألسنتهم صافية نقية عذبة، ليس فيها فضول، ولا فحش، ولا ضلال.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام برواية الشريف الرضي في نهج البلاغة ـ في ذكر الله تعالى ـ:

(إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوَقْرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة.

وما برح لله عزت آلاؤُه في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عبادٌ ناجاهم في فكرهم وكلّمهم في ذات عقولهم)[1].

وان هذه الفقرة من كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام تستوقف الإنسان.

إن ذكر الله تعالى يجلو الصدأ عن القلوب، فينفتح سمع الإنسان على ما لا يسمعه الآخرون، وينفتح بصر الإنسان على ما لا يبصره الآخرون، فيسمع الذاكرون ويبصرون ما لا يسمع

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢٢٢ ص:٣٤٢.

ولا يبصر غيرهم، وان في قلوب الناس صدوداً عن الحق وإعراضاً عنه ما لم يذكروا الله، فإذا تمكّن ذكر الله من قلوبهم انقادت قلوبهم للحق. هؤلاء الذاكرون لا تخلو منهم الأرض في البرهة بعد البرهة... يناجيهم الله في فكرهم، ويكلّمهم في ذات عقولهم، ويسمعون من مناجاة الله وكلامه وندائه ما لا يسمعه ولا يعقله الآخرون.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له، رواه الشريف الرضي في نهج البلاغة في أثر التقوى في نفس الإنسان:

(قد أحيى عقله، وأمات نفسه، حتى دقّ جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة، بما استعمل قلبه وأرضى ربّه)[١].

... هؤلاء العباد يرسل الله إلى قلوبهم برقاً لامعاً، كثير البرق، فينير لهم الدرب، فلا يضيعون، ولا يتيهون في متاهات الحياة، ولا يلتبس عليهم الحق بالباطل، وتتدافع بهم الأبواب

---

(١) نهج البلاغة شرح د. صبحي الصالح ص:٣٣٧.

إلى باب السلامة وساحل النجاة... كل باب يدفعه إلى الباب الآخر، ويثبِّت الله أقدامهم على الطريق، فلا يزلّون ولا ينزلقون في مزالق الدروب، ولا يعثرون حتى يصلوا إلى قرار الأمن والراحة.

وعن رسول الله ﷺ: (لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات)(١).

فالشياطين بما يثيرون في نفس الإنسان من الوساوس، وبما يهيجون في النفس من الشهوات والأهواء يحجبون الإنسان عن ملكوت السماوات... ولولا ذلك لنظروا إلى ملكوت السماوات بنور الله تعالى.

وفي رواية أُخرى عن رسول الله ﷺ :

(لولا تمريغ في قلوبكم، أو تزيُّدُكم في الحديث لسمعتم ما أسمع)(٢).

---

(١) جوامع السعادة ص:١٢ ط. انتشارات جاويدان. وغوالي اللئالي ٢٩/٤، وبحار الانوار ١٦٣/٥٦، و ٣٢٢/٦٠، و٥٩/٦٧، و١٦١/٦٧، ومسند احمد بن حنبل/ مسند أبي هريرة.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٦٦.

مرّغه: دَنَّسه: لسان العرب ٨: ٤٥٠ ط. دار صادر – بيروت.

لولا أن قلوبكم قد دنستها المعاصي ولولا هذه الثرثرة وفضول الكلام في حديثكم ومنطقكم لسمعتم ما يسمعه رسول الله ﷺ من كلام الله ومناجاته وندائه (دون ما يتعلّق بالوحي والرسالة فهو خاص برسول الله ﷺ).

ففي هذه الفقرة من الحديث إذن:

إن الإنسان إذا أخلص عمله لله، وزكّى نفسه، وسعى إلى مرضاة الله، فأحبّه الله فجّر الله تعالى في قلبه عيوناً من المعرفة والعلم تجري على لسانه، وأنار قلبه، وفتح سمعه وبصره، ورزقه نوراً وهدىً وقوةً من لدنه.

ويعجبنا هنا أن ننقل كلام الشوكاني في تفصيل هذه الفقرة من الحديث بطوله عسى أن يجد القارئ فيه الإيضاح الكافي لهذه الفقرة من الحديث.

يقول الشوكاني في رسالته المعروفة بالقطر الولي من حديث الولي في تفسير هذه الفقرة من الحديث:

«فاعلم أن الذي يظهر لي في معنى هذا الحديث القدسي، إن إمداد الرب سبحانه لهذه الأعضاء بنوره الذي تلوح به طرائق الهداية وتنقشع عنده سُحب الغواية. وقد نطق القرآن

العظيم بأن الله سبحانه وتعالى هو نور السماوات والأرض. وثبت انّه سبحانه محتجب بالأنوار.

وثبت بالصحيحين وغيرهما من دعائه ﷺ إذا خرج إلى الصلاة «اللّهمَّ اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وخلفي نوراً، وفي عصبي نوراً، وفي لحمي نوراً، وفي دمي نوراً، وفي شعري نوراً، وفي بشري نوراً» وزاد مسلم: وفي لساني نوراً، واجعل في نفسي نوراً، واعظم لي النور».

وأي مانع من أن يمدّ الله سبحانه عبده من نوره فيصير صافياً من كدورات الحيوانية الإنسانية، لاحقاً بالعالم العلوي، سامعاً بنور الله، مبصراً بنوره الله، باطشاً بنور الله، ماشياً بنور الله. وما في هذا من منع أو من أمر لا يجوز على الربِّ سبحانه وقد سأله رسوله ﷺ وطلبه من ربِّه.

ووصف الله سبحانه عباده بقوله: ﴿**نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾(١).

---

(١) التحريم: ٨.

وليس في هذا ما يخالف موارد الشريعة، ولا ما ينافي في إدراك عقول المتشرِّعين العارفين بالكتاب والسنّة.

وقد جعل الله سبحانه الخروج من ظلمات المعاصي إلى أنوار الطاعات خروجاً من الظلمات إلى النور. وورد في الكتاب والسنّة من هذا الجنس الكثير الطيب.

فمعنى الحديث كنت سمعه بنوري الذي أقذف فيه فيسمع سماعاً لا كما يسمعه أمثاله من بني آدم، وكذلك بقية الجوارح.

وانظر في هذا الدعاء الذي طلبه رسول الله ﷺ أن يكون نور الله في سمعه وبصره وقلبه وعصبه ولحمه ودمه وشعره وبشره ولسانه ونفسه، بل سأل ربّه أن يمدّه بنوره خلفه وأمامه. فلولا أن لنور الله سبحانه قوّة لجميع الأعضاء ما طلبه سيَّد ولد آدم وخير خلقه.

فمن أمدّه الله سبحانه بنوره في جميع بدنه صار لاحقاً بالعالم العلوي، ومن أمدَّ عضواً منه بنوره صار ذلك العضو نورانياً.

فإن كان من الحواس كان لها من الإدراك ما لم يكن

لغيرها من الحواس التي لم تمدّ بنور الله عزّوجلّ. وإن كان الإمداد لعضو من الأعضاء غير الحواس صار ذلك العضو قويّاً في عمله الذي يعمل به مستنيراً، إذا عمل به الإنسان وكان عمله صالحاً موافقاً لما هو الصواب.

فاتّضح لك بهذا معنى ما في هذا الحديث القدسي، أي كنت بما ألقيت على سمعه وبصره ويده ورجله من نوري، سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها. ثم أوضح هذا المعنى بقوله: «فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش وبي يمشي[١]».

اختلاف القرب بالفرائض عن القرب بالنوافل

وقد روي هذا الحديث في بعض المصادر بالصورة التالية:

(ما يتقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ ممّا افترضته عليه، ومازال يتقرّب إليّ عبدي بالفرائض حتى (إذا ما) أحبّه، وإذا

---

(١) القطر الولي في حديث الولي للإمام الشوكاني تحقيق إبراهيم هلال. واسم الكتاب ولاية الله والطرق إليها ص:٤١٥ – ٤١٧.

أحببته كان سمعي الذي أسمع به وبصري الذي أبصر به ويدي الذي (التي) أبطش بها... ومازال يتقرّب إليّ عبدي بالنوافل حتى (إذا ما) أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به... إلى آخر الحديث)[1].

فإذا صحّ الحديث كان معناه - والله أعلم - أنّ للقرب إلى الله حالتين: قرب الفرائض وقرب النوافل، ويكون لكل منهما أثره الخاص في حياة الإنسان. فإذا تقرّب الإنسان إلى الله بالفرائض اختاره الله تعالى أداةً لتنفيذ مشيئته على وجه الأرض. فهو بمثابة يد الله التي يبطش بها الله على الظالمين، وهو عين الله وسمعه، ينفّذ حكمه وإرادته في حياة الإنسان، كما يستعمل الإنسان يده وعينه وسمعه ولسانه لتنفيذ ما يريد وتحقيق ما يطلب..

---

(١) انظر كتاب لقاء الله لآية الله الحاج ميرزا جواد الملكي رحمه الله. تعليقة ص: ٣١ نقلاً عن الجواهر السنيّة للحرّ العاملي ص:٨٨ - ٨٩.
كما يظهر هذا المعنى من خلال كلمات آية الله الشيخ محمّد علي شاه آبادي في كتاب (رشحات البحار): ٤٠ - ٤٦.

يقول تعالى عن قتال رسول الله ﷺ ومن كان معه من المؤمنين في معركة بدر: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾(١). وواضح أن رسول الله ﷺ ومن كان معه من المؤمنين هم المقاتلون والرماة في يوم بدر، إلاّ أن الله تعالى اتّخذهم أداةً لتنفيذ مشيئته في البطش بالمشركين من قريش وكسر شوكتهم.

ويقول تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴾(٢). أي لسلطتك عليهم فلا يجاورونك في المدينة، كما يقول ابن عباس.

ولله تعالى ملك السماوات والأرض، وكلٌّ له جند مسخّرون لتنفيذ ما يريد. . إلاّ أن العبد إذا تقرّب إلى الله بالفرائض، فأحبَّه الله اختاره أداةً لتنفيذ مشيئته. وإذا تقرّب العبد إلى الله بالنوافل أحبَّهُ الله تعالى فإذا كان الله تعالى له

---

(١) الانفال/ ١٧ .

(٢) الاحزاب/ ٦٠.

سمعاً وبصراً ويداً فمكّنه الله ممّا يريد، وأقدره على ما يطلب من مرضاته وأبصره بنوره، وأسمعه، وفتح قلبه وفؤاده.

وبذلك يفترق القرب بالفرائض عن القرب بالنوافل بناءً على هذه الرواية.

وحبّ الله تعالى يرفع الإنسان إلى لقاء الله، كما يبلغ بالإنسان إلى ولاية الله حتى يسمع بالله ويبصر بالله تعالى.

وهاتان نتيجتان لحبّ الله.

وكما تحدّثنا عن الأُولى؛ أحبّ أن لا أُنهي هذا البحث دون أن أتحدّث عن الأُخرى وهي لقاء الله، فليكن حديثنا موجزاً عن لقاء الله في نهاية البحث عن الحبِّ الإلهيِّ.

لقاء الله

لقاء الله في النصوص الإسلامية

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾[1].

لا نشك في (لقاء الله) فإن القرآن أنبأنا به، ولا نجد مسوِّغاً من الناحية العلمية لتأويل (لقاء الله) في القرآن وفي النصوص الإسلامية بالموت، فإننا إذا استعرضنا هذه النصوص جميعاً ووضعنا بعضها إلى جنب بعض نجد أن هذه النصوص تقرِّر (لقاء الله) بصورة مستقلة عن الموت، وحتى عمّا ينعم به عباد الله الصالحون في الآخرة من نعيم الجنّة، فليس لنا من سبيل إلى تأويل (لقاء الله) بالموت وبما ينعم به عباد الله الصالحون من نعيم الجنّة بعد الموت.

كما لا شك أن المقصود بـ (لقاء الله) ليس الإحاطة بالذات الإلهية المقدّسة واكتناه ذات الله وجلاله وجماله ورؤيته عزّوجلّ، فإنّ ذلك كلّه من المستحيل، يرفضه العقل

---

(١) الانشقاق/ ٦.

والشرع، وكيف يحيط المحدود باللامحدود والمطلق الذي ليس لجلاله وجماله وعظمته حدّ، وكيف يمكن رؤيته تعالى وهو (مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة) و (ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج) و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1].

فما هو (لقاء الله)؟ وماذا تحمل هذه العبارة الجليلة الواردة في الثقافة التوحيدية من مفاهيم وأفكار وتصوّرات؟

إن (لقاء الله) هو شهود جمال الله وجلاله وأسمائه وصفاته الحسنى. وقليل من الناس ينعمون بهذه النعمة الجليلة. أمّا عامّة الناس فلا يجدون سبيلاً إلى هذه الموهبة الجليلة، وتحول بينهم وبين مشاهدة الجمال والجلال الإلهي حُجُب كثيفة من سلطان الأهواء والشهوات، وتراكم الذنوب والسيئات، وحبّ الدنيا وسلطانها على نفوسهم. وأمّا الذين ينعم الله تعالى عليهم بهذه النعمة ويرزقهم مشاهدة جلاله وجماله في الدنيا والآخرة فقلّة من الناس، وصفوة من عباد

---

(١) الشورى: ١١.

الله الصالحين.

وقد ورد في الحديث المعروف المروي عن رسول الله ﷺ في خصال الشهيد السبعة، بعد ذكر الخصال الستة: (والسابعة أن ينظر في وجه الله، وإنها لراحة لكل نبي وشهيد)[1].

وقد ورد (لقاء الله) في كثير من النصوص الإسلامية بصيغ وتعبيرات مختلفة.

ففي المناجاة الشعبانية، وهي من جلائل المناجاة والأدعية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام:

(إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأَنِرْ قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصارُ القلوب حُجُبَ النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحُنا معلّقةً بعزّ قدسك. إلهي واجعلني ممّن ناديته فأجابك سرّاً وعمل لك جهراً.

إلهي وألحقني بنور عزّك الأبهج فأكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً ومنك خائفاً ومراقباً)[2].

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٠.

(٢) زاد المعاد للعلاّمة المجلسي: ٥٥ – ٥٦، دار الكتب الإسلامية.

إن لقاء الله لا يتم للإنسان إلاّ عندما ينقطع إلـى الله تعـالى انقطاعاً كاملاً. ويزيل ما بينه وبين الله من حُجب الظلمات من الـذنوب والسـيّئات، ومـن حـبِّ الهـوى والشـهوات، والـدّنيا وسلطانها على النفس.

فـإذا انقطـع إلـى الله، وأزال مـا بينـه وبـين الله مـن حُجـب الظلمة جعل الله تعالى في قلبه نوراً يخترق به (حجب النـور)، فيصل إلى شهود معدن الجمال والجلال والعظمة.

وينجـذب قلبـه إلـى معـدن الجمـال والجـلال والعظمـة، فيشغله عن كـل شـيء ولا يشـغله عنـه شـيء، ويكـون معلقـاً بمعدن الجلال والجمال والعظمة.

روى ثقـة الإسـلام محمّـد بـن يعقـوب الكلينـيرحمه الله فـي (الكافي) : (إن روح المؤمن لأشدُّ اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها)[1].

وفي دعاء كميل المروي عن أمير المؤمنينعليه السلام:

(وهبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك).

(١) اصول الكافي ٢: ١٦٦.

ولست أستطيع أن أصف رقة وشفافية هذه الكلمة العلوية في هذه الفقرة من دعاء كميل.

فليس الذي يقلق العبد العارف بالله ولا يطيقه أن يحل في عذاب نار جهنّم، وتحيط به سرادقها، وإنّما الذي يقلقه ويشكوه إلى الله في وسط حريق هذا العذاب الهائل: أن يكون الله تعالى غاضباً عليه، ساخطاً منه، مفارقاً له.

وان كان العبد العارف يتحمّل عذاب الله، فلا يتحمّل فراقه تعالى.

ولهذه الرؤية الصافية وجهٌ آخر نستشفه منها، فلا يكاد ينعم عليٌّ عليه السلام بشيء من نعيم الجنّة، كما ينعم بلقاء الله تعالى، ولا يوازن شيء من نعيم الجنّة نعمة لقاء الله تعالى عند عليٍّ عليه السلام.

وورد في الدعاء: (ولا تحرمني النظر إلى وجهك).

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في سجوده: (اللّهمَّ إنّي أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذّة

النظر إلى وجهك الكريم)[١].

ولا ينعم العبد العارف بالله في هذه الدّنيا وفي الآخرة، بلذّة فوق هذه اللّذّة، وإنها لراحة لكل نبي وشهيد، كما ورد في النص السابق عن رسول الله ﷺ.

المنهج التربوي لإعداد النفس للقاء الله

ولقاء الله بهذا المعنى أقصى درجات القرب إلى الله. والوصول إلى هذه الغاية لا يتمّ إلاّ بعد كدح طويل في تهذيب النفس وتخليصها من سلطان (الهوى) و (الأنا) ومن سلطان الدنيا وفتنها[٢]... فإن الانصراف إلى الدنيا والإقبال عليها يحجب الإنسان عن الانصراف إلى الله والانقطاع إليه والإقبال عليه تعالى.

كما أن سلطان (الهوى) و (الأنا) على النفس وتراكم

---

(١) إحياء العلوم للغزالي ١: ٣١٩.

(٢) ليست الدّنيا مذمومة في الإسلام وإنّما المذموم هو حبّ الدنيا، وليس على المؤمن بأس في أن يتملّك من الدّنيا ما رزقه الله تعالى من مصادرها المشروعة، وانّما البأس من أن يتملكه حبّ الدنيا، وبينهما فرقٌ كبير.

الذنوب على القلب يحجب القلب عن رؤية الله تعالى. فإذا سعى الإنسان في تهذيب نفسه وتخليصها من سلطان (الهوى) و (الأنا) وتطهيرها، تعرّضت مباشرة لسلطان جاذبية الجمال والجلال الربوبيَّين، وجذبه جمال الله تعالى وجلاله، جذباً كاملاً، وتجلّت له بقدر صفاء نفسه ونقائها صفات الله وأسماؤه الحسنى، وملأت عقله وقلبه، وشغلته عن كل شيء دون الله، فلا يصرف الإنسان عندئذ عن الله شيءٌ ولا يجد فوق لذّة هذا الشهود لذّة.

التخلية قبل التحلية

وهذا المنهج التربوي في إعداد النفس للقاء الله تعالى، وشهود صفاته الحسنى وجلاله وجماله يعتمد أصلاً مهماً في حركة الإنسان إلى الله، وفي كدح الإنسان للقاء الله. وهذا الأصل هو البدء بتخلية النفس وتطهيرها من الذنوب والمعاصي التي تحجب الإنسان عن الله، وتحريرها عن سلطان (الهوى) و(الأنا) وسلطان الدنيا وفتنها، والانطلاق والإقلاع إلى لقاء الله من هذه القاعدة. فإذا تمَّ للإنسان ذلك... عندئذ يجعل الله تعالى في قلبه نوراً يخترق به حجب النور

والظلمـة فتصـل إلـى معـدن العظمـة، ويمكّنـه مـن العـروج والصعود إليه عزّ وجلّ للقائه.

فلا يستطيع الإنسان أن يقوم بإعمار قلبـه بـذكر الله وحبِّـه، والانقطاع إليه تعالى، إذا كان للأهواء والشهوات سلطان على نفسه، وإذا كانت الذنوب والمعاصي قد حجبت قلبه عن الله.

فلابدّ لـه أوّلاً في هذه المسيرة الداخلية الشاقّة مـن تطهيـر نفسه وتخليتها ممّا يتراكم عليها من الـذنوب، وكسـر سـلطان الأهواء والشهوات في نفسه. وعند ذلك فقط ينفتح قلبه علـى معرفـة الله، ويـدخل الشـوق والحـب والأُنـس بـذكر الله ومناجاته في قلبه، ويعمر قلبه ويستنير.

قسوة القلوب تحجبها عن مشاهدة جمال اللّه

ولكي يجتاز الإنسان حالة انغلاقة القلب، وانشغالها بحـبّ الدّنيا وفتنها ومتاعها، وسلطان الشهوات والأهواء عليها... لابدّ لـه مـن معانـاة طويلـة، وكـدح عسـير، شـاق... فـإن الأهـواء والشهوات عندما تـتمكّن مـن نفـس الإنسـان وتتـراكم عليهـا الـذنوب والمعاصـي... يقسـو القلـب، ويفقـد حالـة الانفتـاح والاسـتقبال للمواهـب الإلهيـة، ويتحجّـر، ويكـون عندئـذ

كالحجارة، أو أشدّ من الحجارة، فإن من الحجارة لمّا يتفجّر منه الأنهار، وان من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله. . والقلوب التي يُصيبها النكد والقسوة، لا تلين، ولا ترقّ، ولا تخشع، ولا تستقبل خيراً، ولا تعطي خيراً. ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١].

وحالة القسوة والانغلاق هذه تفقد القلب كل خصائصه، وتعطّل دوره وعمله في استقبال المواهب الإلهية[٢].

الكدح إلى الله في طريق لقاء الله

وفي طريق تطهير القلب والسيطرة على النفس وما أودع

---

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) يحسن في معرفة القلب وأسراره وأمراضه وعلاجه مراجعة الجزء الخامس من الكتاب القيِّم (المحجّة البيضاء في إحياء الأحياء) للمحدّث الفقيه العارف بالله الفيض الكاشاني رحمه الله.

الله تعالى فيها من الأهواء والشهوات لابدّ للإنسان من معاناة طويلة وكدح شاق عسير.

يقول تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ**﴾(١).

وهذا الكدح في طريق تطهير القلب، وتهذيب النفس تزكيتها، وتمكين العقل من سلطان الشهوات، هو الجهاد الأكبر في حياة الإنسان، كما يقول رسول الله ﷺ.

وإذا توفّق الإنسان في هذا الطريق الشاقّ، فإن غاية تحرّكه لقاء الله (فملاقيه). وناهيك بها من غاية سامية وشامخة في حياة الإنسان.

---

(١) الانشقاق: ٦.

الفهرس